استربتيز

لم تكن المرة الأولى التي يحادثني أخي في الأمر. أشعر بالدماء الصاخبة تنطلق إلى مخي بينما يقول:

– لازم نبيع البيت، دا قديم وواقع مفيش فايدة منه، ليه مصرّ على الاحتفاظ بيه؟ دا المتر فيه عامل عشرين ألف الآن.

أتأمله لأبذل مجهودا خارقا في شد أنفاسي. يواصل:

– لو ما وافقتش حتبقى عثرة في طريق مستقبلنا وسعادتنا، دا حقنا بالميراث، وأنا وإخواتك قررنا بيعه سواء بموافقتك أم بدونها.

– تطول فترات صمتي المتأملة. تتضخم أوردتي ضائقة بدمائها الغاضبة. أبدل ساقا على الأخرى متململا. أشعل سيجارتي العاشرة بعصبية. يقول:

– أنت أكثرنا احتياجا للفلوس دي؛ زوجتك مريضة وأولادك محتاجين مصاريف كثير ، ليه مش عايز توافق وتسعد نفسك وتسعدنا معاك؟

أنفجر فجأة كالبركان. تنطلق الكلمات كالقذائف وكأنها كانت تتحين كلماته الأخيرة بينما الزبد ينتحي شدقي:

– إنتوا ما بتفكروش إلا في نفسكم ومشاكلكم؟ نسيتم أمكم اللي ساكنة في نفس البيت؟ وحتعملوا فيها إيه؟ حترموها في عرض الطريق كنفاية؟

- حناخدها عندنا تقضي في بيت كل واحد مننا أسبوع.

أزعق:

- يعني حتشردوها عند كل واحد مننا أسبوع وكأنها لاجئة، يا ريتها كانت ماتت قبل ما نعمل فيها كدا.

يقول وقد بدا نفاذ صبره:

- إحنا قررنا البيع وإذا كنت مش عايز إنت حر في حقك.

بتحدي:

- مش حتبيعوا ما دمت حي أُرزق.
- يبقى مفيش قدامنا إلا القضاء.

بحسرة مندهشة:

- سنتقاضى أمام المحاكم؟
- أنت اللي بتدفعنا لكدا بإصرارك.

***

أنحشر في الأتوبيس بمعجزة يعجز عنها الشيطان. أشعر بجسدي محمولا بين أكداس اللحم اللزجة. أحاول لمس الأرض بقدمي فأعجز. أنفاس الخلق من حولي تزهق أنفاسي. أحس بقطرات العرق اللزجة تنبثق من مسامي لتخط لها العديد من المجاري. أشعرها كدبيب النمل على وجهي و رقبتي. أحاول تجفيفها فأعجز. أتأمل الجالسين حاسدا إياهم. يشعل أحدهم سيجارته. أختنق حينما ينفث دخانها الكثيف في وجهي. تنطلق دوامات الدخان في الجو الثقيل الخانق فتتحول إلى

سحابة كثيفة خانقة. يلتصق أحدهم بظهر الفتاة الواقفة أمامه. يتحسسها بينما عيناه تدوران بحذر من حوله. حينما يطمئن أنه غير مراقب يضغطها بقوة. تنظر إليه بلحظها وكأنها لا تدري عمدية فعله. تقول بدلال مثير:

- حاسب كنت حاقع.

يتزايد ضغطه بهدوء وقد اطمأن إليها بينما هي تدفع نفسها للخلف لتقوية التضاغط المتلاحم. أتأمل حالة التواطؤ الناشئة بينهما. يستهويني الأمر فأتأملها بشفتيها الدقيقتين وصدرها المرتفع. يتقبب سرواله لتتسلل يده متحسسة ردفيها. تأخذه الرغبة فيحاول فتح الجيب. يرتج الأتوبيس مترنحا لتلسعني سيجارة جاري. أتأوه فينظر إليّ غير مبال. يلكزني أحدهم بمرفقه ليقول بغضب:

- أنت أعمى؟

أعتذر بالرغم من عدم خطأي. يتوقف الأتوبيس بميدان التحرير. أسرع بالهرب من جحيمية البشر المكدسين. أشد أنفاسي بقوة دافعا بها إلى صدري المستضيق.

***

أتجه إلى عملي غير واع بما حولي. أحاول التنفس بصعوبة نتيجة ضيق صدري. صوت فرملة قوية يعيدني إلى الواقع عند عبوري الميدان صوب شارع طلعت حرب. أبتعد منتبها بينما صوت السائق يتردد صداه في رأسي:

- ماشي نايم يا حمار؟

ألمح عجوزا بملابس سوداء مهترئة تجلس جوار "ومبي" بينما أحدهم يحاول إبعادها و كأنها نفاية. أبطئ خطاي متأملا إياها بينما صورة أمي العجوز تأخذ مكانها. يخرج فتى وفتاة متخاصرين. تصطبغ شفتاها بلون قرمزي داكن وكأنها انتهت لتوها من مأدبة دموية. يترجرج نهداها بانسيابية مثيرة في كل خطوة تخطوها فتذكرني بفتاة الأتوبيس. تقترب منها المرأة مستجدية فتنظر إليها الفتاة باشمئزاز. تبتعد مع فتاها المخنث قائلة:

- إيه الأشكال دي؟

تنطلق ضحكة وقحة من فتاها ليبتعدا متخاصرين. أجرّ أقدامي صوب شارع قصر النيل. بينما صورة المرأة لا تزال عالقة في ذهني.

***

أقف منتظرا المصعد كثيرا بينما البواب يرمقني بعينيه. أذكر أننا تشاجرنا بالأمس لأنه رغب مني "بقشيش" حينما أوصلني للدور الثالث ولم أعطه شيئا. حينما مرّ الكثير من الوقت أطلب منه المساعدة إلا انه قال بهدوء بينما عيناه في الاتجاه المعاكس:

- الأسانسير عطلان يا بيه.

أتجه صوب السلم. تتطرق إلى أذني تحية أحد الزملاء. ألتفت نحوه فإذا بيده تندس في جيب جلباب البواب بورقة نقدية. يسرع ليفتح له المصعد و يصعدان معا.

***

أدخل مكتبي تائها في أفكاري المزدحمة وقد امتلأت غضبا من البواب اللعين. أحيي زملائي فلا يلتفت لي أحد. يواصلون حديثهم الضاحك بينما يجلسون فوق مكاتبهم المزدحمة التي يضيق بها المكان. أنظر لمقاعدهم الشاغرة فيبدون لي كتلاميذ مدرسة تمردوا على النظام. يتبادلون السجائر ليقول أحدهم:

– شفت قناة الـ xxl أمس؟

يرد الآخر منتشيا:

– ياااه... كان عليها حتة فيلم سكس خلاني عملت تلاتة بعد ما شفته.

أدفن نفسي فيما أمامي من ملفات. أطلب فنجالا من القهوة. يظل عم محمد واقفا محملقا في. أقول مندهشا:

– فيه إيه؟ مالك؟

يرد بوقاحة عجيبة:

– الحساب يا بيه.

تذكرني لهجته أني لم أحاسبه منذ فترة طويلة. أنكمش في ذاتي لأقول:

–هات القهوة دلوقتي يا عم محمد و حبقى أحاسبك بعدين إن شاء الله.

– آسف يا بيه، لما تبقى تحاسبني ابقى أطلب، حسابك تقل قوي و أنا ورايا أولاد بربيهم.

أترك الرجل يذهب لأنكمش في ذاتي. أغرق في مستنقع الشعور

بالهوان. يسود الصمت من حولي تماما حتى خيل إليّ أنـــي صـــرت وحيدا. أتأملهم متسائلا:

– من أين راحة البال التي أراها على وجوههم؟ أيمكن أن أكون مثلهم؟ ولكن كيف وأنا عبئي ثقيل؟

أنتفض فجأة على صوت أحدهم:

– مالك شايل هموم الدنيا كلها فوق راسك كدا؟

ألتفت إليه قائلا:

– زي ما أنت عارف الهم ثقيل واليد قصيرة .

يبتسم بخبث:

– وليه ما تكونش طويلة؟

مندهشا:

– تقصد إيه؟

– ولا حاجة ..فتّح مخك وسترى الوجود جميلا.

يضحك مقهقها ليقول:

– على أي حال القهوة اليوم على حسابي... بس روّق بالك.

***

أستغرق في الملفات الكثيرة المكدسة أمامي لأصب فيها همومي المتكاثرة. أتناسى ما يدور حولي من صخب العديـــد مـــن الـــزملاء ليقترب مني أحدهم:

– إيه أخبار الموظف الجديد اللي بيتمرن تحت إيدك؟

– أحواله سيئة تماما، تصور.. ست شهور لحد دلـوقتي ومـش عارف يكتب تقرير واحد.. أعتقد أحيانا أنه جاء هنـا عـن طريـق الخطأ.

– وحتعمل إيه؟

– بالتأكيد حارفع عنه تقرير إنه غير صالح للعمل ولا يجيد فعل أي شيء، دا بيجي يوميا عشان يقعد وبس وكأنه سد خانة، هو عبء كبير على العمل يضره أكثر من نفعه.

– أعتقد أنك غلطان في اللي بتقوله.

أندهش قائلا:

– ليه؟

– لأنك عارف انه جا هنا بوصاية كبيرة ، والمدير نفسه عـايزه هنا.

– لكنه مش حيفيد العمل في شيء ، دا ما بـيعملش أي حاجـة إطلاقا.

– يا أخي وأنت مالك؟ هي كانت مصلحة أبوك؟

غاضبا:

– ما دمت أتحمل مسئولية تمرينه ورفع تقرير عنه فهي مصلحة أبويا.

بهدوء محاولا إقناعي:

– فكر كويس ، ما تخربهاش فوق راسك.

– طظ في الكبير، أنا بشوف شغلي كما يمليه عليّ ضميري.

يقوم بهدوء مبتعدا لينادي بسخرية:

– القهوة حسابها عند البيه يا عم محمد، ابقى خلي ضميره ينفعه.

***

أبدل قدم مكان الأخرى متململا طول انتظاري للمصعد. تقف إحدى الزميلات بجواري. تومئ لي برأسها محيية. أبادلها التحية بينما يصل المصعد. أتنحي لها لتسبقني داخلة. أتأملها متنسما رائحتها النفاذة. تقع عيناي على نهديها الممتلئين، ملابسها شديدة الضيق حتى أني أشعرها ستتمزق. تتأملني بجرأة وكأنها تعرض نفسها عليّ. تتجاذب معي أطراف الحديث. تسألني عن سبب تجهمي الدائم. حينما أخبرها تقول:

– دي أمور كلنا بنمر بيها ، المهم انك يكون لك مكان آخر ترفه فيه عن نفسك.

بغباء:

– تقصدي إيه؟

– يعني مثلا مالكش صديقة تخفف عنك؟ مكان تاني غير البيت ومشاكله والأولاد؟

أؤكد لها أني لا أعرف أيا من هذه الأمور. فتقول :

– أنت مالك مش عايش معانا؟ حاول تعيش شوية.

يصل المصعد إلى الدور الأرضي فأتركها خارجا بينما تتجسم أمامي حالة التواطؤ التي رأيتها في الأتوبيس صباحا.

***

أسير شاردا غير واع بما حولي. يتناهى إلى سمعي قول أحدهم:

- أبويا فضل يضيق عليّ لحد ما عرف إني بسرقه فبهدلني، والله كنت حقتله وقتها لكني سيبت له المحل، حارفع عليه قضية حجر وأقول أن قواه العقلية لا تحتمل.

تصطدم الجملة بأذني فأتذكر ما يريد أخوتي أن يفعلوه بأمي. أحدهم يمد يده بمذلة طالبا المساعدة فينظر إليه الآخرون بتأفف. أسرع صوب ميدان التحرير. أتأمل الميدان المزدحم. أتجه حيث يتجمع الآخرون منتظرين الأتوبيس. أتوسط الحديقة التي أمام المتحف المصري. أتأمل إحدى الفتيات. كانت تبدو لمن يراها وكأنها تكاد أن تذوب حبا في فتاها الذي يجاورها إلا أن عينيها اللتين تشيران لآخر تفضحها. أصرخ من أعماقي. يلتفت إليّ الآخرون غير مبالين وكأنهم ينظرون إلى معتوه. أبدأ في التعري بينما الناس يلتفون حولي متأملين في دهشة ساخرة. يبدو الأمر وكأنهم يشاهدون فيلما كوميديا. حينما أتعرى تماما يتصايح الناس من حولي. يحاول رجال الأمن إلباسي إلا أني أبدأ في الرقص أمامهم وكأنني بالفعل مجنون. حينما ييأسون من محاولة إلباسي تهبط عصيهم الغليظة على رأسي، صدري، ساقي، أحس سخونة دمائي السائلة إلا أنها كانت تزيدني رغبة في الرقص .